تطبيق الاستعارة الواردة في خُطب نهج البلاغة والقرآن الكريم

طالبة الدكتوراه سمانه ناصري
naseri.samaneh@yahoo.com
الأستاذ المشارك الدكتور عبدالرضا عطاشي
جمهورية إيران الإسلامية
جامعة آزاد الإسلامية آبادان – قسم اللغة العربية وآدابها

Comparison of metaphor in the sermons of Nahj al-Balagha and Quran Karim

PhD student Samaneh Naseri
Associate Professor Abdolreza Atashaki
ISLAMIC Republic of IRAN
Azad University of Abadan - Arabic Language and Literature Department

الملخص:-

عندما نطالع كتاب نهج البلاغة نجد الكثير من التراكيب الاستعارية ذات دلالات لسانية و إيحائية مأخوذة من القرآن الكريم و قد أشبعت تلك التراكيب من معاني التوحيد، و صفات البارئ جل علاه و الايات الباهرات في الكون و الخلق. تجلّت الإستعارة بأقسامها المتعددة في خطب الإمام عليه السلام وقد استقاها الإمام من القرآن الكريم، فكانت ذات دلالات متقاربة و مشتركة ما عدي الفارق في اللفظ. حول الصورة الاستعارية الفنية وجمالية توظيفها في كلام أمير المؤمنين عليه السلام نستطيع القول بأنه من الواضح أنّ الصورة الفنية قد يرتفع مستوي العمق التأثيري فيها، ليتجاوز حدود الاستعارة والتشبيه إلى التجسيد والتشخيص والوصف وكانت دقة ملاحظة الإمام حول الكون وتفسيره للواقع تجعله محيطاً إحاطة مدهشة بسمات الشيء الباطنية والظاهرية أيضا.

الكلمات المفتاحية: الاستعارة – القرآن الكريم – نهج البلاغة – التطبيق.

Abstract:-

When we read Nahj al-Balagha's book, we find many metaphorical combinations that are derived from the Holy Qur'an, which are full of concepts of monotheism and adjectives of the Creator and are obvious signs of being and creation. Metaphors appeared in various sermons of Imam (AS), and Imams used the Holy Quran, which had similar implications but were different in terms of expression. Regarding the technical and beauty image of Amir al-Momenin (AS), we can say that it is clear that the artistic image has increased the depth of influence and its impact, and that it is a metaphor of visual analogy, recognition and description of the past. The precision of Imam's observations of the world and their interpretation of reality creates an extraordinary atmosphere about internal and external features.

Keywords: metaphor, holy Quran, Nahj al – Balaghah, comparison.

١ـ معنى ومفهوم الاستعارة

الاستعارة لغة: من قولهم، استعار المال: إذا طلبه عارية. (ابن منظور ١٤٠٤، ٩: ٤٧١). واصطلاحاً: هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة (المشابهة) بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع (قرينة) صارفة عن إرادة المعنى الأصلي (والاستعارة) ليست إلى (تشبيهاً) مختصراً، لكنها أبلغ منه و تتكون الاستعارة من: مستعار منه - وهو المشبه به ومستعار له - وهو المشبه، ومستعار - وهو اللفظ المنقول، فكل مجاز يبنى على التشبيه (يسمى استعارة) ولا بُد فيها من عدم ذكر وجه الشبه، ولا أداة التشبيه، بل ولا بدّ أيضاً من (تناسى التشبيه) الذي من أجله وقعت الاستعارة فقط، مع ادّعاء أن المشبه عين المشبه به، أو أدعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه (الهاشمي، ٢١٨).

وبما أن الاستعارة هي استعمال الفظ في غير ما وضع له فإناه تشبه المجاز و لربما تتفرع من المجاز و حول هذا الارتباط يقول التفتازاني: ((والاستعارة احدى أنواع المجاز، وهي ((مجاز تكون علاقته المشابهة، أي قصد أنّ الإطلاق بسبب المشابهة)) (التفتازاني ١٤٢٥، ٣٤١).

وفيما يختص بالاستعارة يقول السكاكي: ((هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخصّ المشبه به)) (السكاكي، بي تا، ١٧٤).

ومذهب الجمهور إنها: ((لفظ المشبه به المستعار في النفس للمشبه المحذوف المرموز إليه بإثبات لازمه للمشبه)) (بيومي ١٩٧٢، ١٨١). يلاحظ أنّ الجمهور اشترطوا إثبات لازم المشبه به للمشبه، وهذا ما لم يذكره الفخر في تعريفه لهذه الاستعارة. (فخر رازي، ١٣٩٣، ١١٦). وهذا المفهوم قريب من كلام فخر الدين الرازي الذي عرف الاستعارة بالكناية و لكنه يقرب الاستعارة بالكناية بل و يعتبرها كناية بقوله: ((هذا إنما يكون إذا لم يصرح بذكر المستعار، بل ذكر بعض لوازمه تنبيهاً به عليه)) (رازي ١٩٨٥، ١٢٥)

ويجوز عند البعض أن تكون بعض صور الاستعارات المكنية من باب المجاز العقلي أيضاً، وهذا يخالف السكاكي الذي يقول عند خاتمه فصل المجاز العقلي: ((هذا كلّه تقرير للكلام في هذا الفصل بحسب رأي الأصحاب من تقسيم المجاز إلى لغوي

وعقلي، وإلاّ فالذي عندي هو نظم هذا النوع في سلك الاستعارة بالكناية)). (أبو موسي، محمد حسين، د.ت: ٣٠٢)

((فالسكاكي ينكر المجاز العقلي، ويصنفه في مبحث الاستعارة بالكناية، بينما يثبت عبد القاهر بين المجاز العقلي والاستعارة المكنية، ولعلّ سبب ذلك أن الاستعارة المكنية تلتبس بالمجاز العقلي، ولذلك ((رأينا السكاكي يدخل صوره في الاستعارة المكنية)). (السكاكي، د.ت: ١٨٩).

في الواقع أن الاستعارة هي في الأصل تشبيهٌ حُذف فيه المشبّه به. وبلاغة الاستعارة تكمن في الإيجاز و الإبداع و التوسّع في توظيف اللغة والدلالات و حاجتها إلى التأمّل والربط فيها بين الظواهر والأشياء التي تبدو في الظاهر متناقضة ومتضادّة و ضخّ الحركة والحيوية في التعبير الأدبي.

والاستعارة التخييلية هي إثبات لازم المشبه به المحذوف للمشبه، وتكون قرينة للاستعارة المكنية. وهذا ما عليه جمهور البلاغيين، فهما متلازمتان، لا توجد إحداهما بدون أخرى، إذ لابدّ للاستعارة من قرينة. قال الخطيب القزويني: ((قد يضمر التشبيه في النفس، فلا يصرّح بشيء من أركانه سوي المشبه، ويدلّ عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به، فيسمّي التشبيه استعارة بالكناية، أو مكنياً عنها، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخييلية)) (الخطيب القزويني، ١٤٠٣، ٢: ٤٤٤).

٢ـ الصورة الاستعارية في الخطبة الأولى

الخطبة الأول من كتاب نهج البلاغة تعتبر من الخطب التوحيدية وهي ترتكز على الحمد والثناء لله رب العالمين وبيان صفاته الثبوتية وتوحيده الأفعالي ومن خلال ذلك قد استخدم الأمام علي عليه السلام في هذه الخطبة أنواع الاستعارة التبعية منها و المكنية؛ لأن الأفعال والمشتقات الواردة في بيان صفات البارئ عز و جلّ هي من قبيل الألفاظ المستعملة في الكلام الاعتيادي و لكنه استعملت لتقريب الذهن للمعني المراد:

أ ـ الاستعارة التبعية في عبارة ((فطر الخلائق))

نجد الإمام في الخطبة الأولى يستخدم فعل ((فطر)) للخلق و فعل ((وتد)) للجبال

والصخور وهذه العبارة قد ذكرت في القرآن الكريم و فيها دلالات استعارية. يقول الإمام علي عليه السلام في بيان عظمة الخالق:

((فَطَرَ الْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَ نَشَرَ الرِّياحَ بِرَحْمَتِهِ، وَ وَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدانَ اَرْضِهِ)) (نهج البلاغة؛ خطبه ١: ٢)

أصل الفطر الشق يقال: تفطر الشجر بالورق و الورد إذا ا أظهرهما (النيسابوري، ١٤١٦، تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان، ج٣، ص: ١٠٩) والمراد من فطر الخلق والإبداع فأطلق الفطر على إيجاد الشيء و إبداعه على هيئة تؤهّل للفعل (ابن عاشور، ج٦، ص: ١٨١).

جاء فعل فطر في القرآن الكريم في موضعين من القرآن على لسان إبراهيم عليه السلام و الثاني على سياق الأمر لنبيه

الف: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الانعام، ٧٩).

ب: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم، ٣٠).

معنى فطر أخرجهما إلى الوجود، و أصله من الشق، يقال: تفطر الشجر بالورق و الورد إذا أظهر هم (الفخر الرازي، ج١٣، ص: ٤٧).

ب: ـ الاستعارة التبعية في عبارة ((نَشَرَ الرِّياحَ بِرَحْمَتِهِ))

نجد الإمام عليه السلام يستعير ((نشر الرياح)) لبيان بسط السحاب في السماء و إتيان البشري و الخير للأرض من خلال هبوط الأمطار. و هذا مأخوذ من قوله تبارك و تعالى:

الف: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الاعراف، ٥٧)

وأطلق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة، فإرسال الرّياح هبوبها من المكان الذي تهب فيه ووصولها، وحسّن هذه الاستعارة أنّ الرّيح مسخّرة إلى المكان الذي يريد

اللّه هبوبها فيه فشبهت بالعاقل المرسل إلى جهة ما، و من بدائع هذه الاستعارة أنّ الرّيح لا تفارق كرة الهواء (ابن عاشور، ج٨، ص: ١٣٨).

وأرسال الرياح توحي بتركيب الغيوم والسحب الممطرة ثم الانتشار والبسط بواسطة الرياح و هذه عملية معقدة تتم بإذن الله سبحانه و تعالى: قال البارئ عز و جل:

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الروم، ٤٨).

وجمع الرِّياحَ لما شاع في استعمالهم من إطلاقها بصيغة الجمع على ريح البشارة بالمطر لأن الرياح التي تثير السحاب هي الرياح المختلفة جهات هبوبها بين: جنوب و شمال و صبا و دبور، بخلاف اسم الريح المفردة فإنه غلب في الاستعمال إطلاقه على ريح القوة و الشدة لأنها تتصل واردة من صوب واحد فلا تزال تشتد (ابن عاشور، ج٢١، ص: ٧٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى، ٢٨). ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ (الفرقان، ٤٨).

ب: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى، ٢٨)

ج: الاستعارة التبعية في عبارة ((وَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدانَ اَرْضِه))

لقد بين الإمام عليه السلام حالة تثبيت صخور الأرض ومسكها عن الميلان بحالة الوتد الذي يضع لتثبيت الخيام أو بحالة الوتد الذي يمسك قطعات الخشب المتراكبة على البعض.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً وَالْجِبالَ أَوْتاداً﴾ (نبأ، ٧).

و الأوتاد: جمع وتد بفتح الواو و كسر المثناة الفوقية. و الوتد: عود غليظ شيئا، أسفله أدق من أعلاه يدق في الأرض لتشد به أطناب الخيمة و للخيمة، أوتاد كثيرة على قدر اتساع دائرتها. و الإخبار عن الجبال بأنها أوتاد على طريقة التشبيه البليغ أي كالأوتاد (ابن عاشور، ج٣٠، ص: ١٤). شبه الجبال بأوتاد الخيام التي تمنعها من الاضطراب، كما تمنع الجبال الأرض أن تميد بأهلها (الصافي، ١٤١٨، ج٣٠، ص: ٢١٧).

فقد استعار الأمام عبارة ((وتّد)) للثبات و التثبيت و هي استعارة تبعية و فيها ترشيح لأن الأوتاد مؤالمة مع التثبيت للطبقات المتحركة.

٣ـ التركيب الاستعاري في خطبة ٤٩

في هذه الخطبة العظية و المليئة بذكر صفات البارئ جل علاه ورد التراكيب الاستعارية لبيان توحيد الصفات و الصفات الثبوتية للخالق و نفي الشريك له:

((الْحَمْدُ للهِ الَّذي بَطَنَ خَفِيَّات الأمُور، وَدَلَّتْ عَلَيْه أَعْلاَمُ الظُّهُور، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ؛ فَلاَ عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلاَ قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلاَ شَيءَ أَعْلَى منْهُ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَقْرَبُ منْهُ، فَلاَ اسْتِعْلاَؤُهُ بِاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ منْ خَلْقِه ، وَلاَ قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَان بِه، لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيد صِفَتِه، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِب مَعْرِفَتِه، فَهُوَ الَّذي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلاَمُ الْوُجُود، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُود، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً)) (نهج البلاغة؛ خطبه ٤٩: ٤٣)

أ ـ الاستعارة المكنية المرشحة في عبارة ((أعلام الظهور)).

المراد من ((أعلام الظهور)) الآيات الباهرات و البراهين الظاهرة في الكون والاشتراك فيما بينها هو الهداية (ابن ميثم بحراني:٢٩٠). ولكن التراكيب أعلام الظهور و أعلام الوجود التي تعتبر في العرفان من الأعيان الشاهدة على الرغم من كثرة الدلالة المنطوية تحت مضمونها فهي تعتبر استعارة مرشحة و من خلال الاسناد العقلي مقرونة بفعلي ((دلَّتْ)) و((تَشْهَدُ))

أخذ الإمام علي عليه السلام عبارة ((**فَهُوَ الَّذي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلاَمُ الْوُجُود**)) من الآية التالية:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران، ١٨).

والمراد من ((أعلي)) و((أقرب)) هو القرب العقلي وليس المكاني وفي عبارة ((تحديد صفته)) توجد استعارة تصريحية وتبعية لأن عبارة تحديد ذكرت بدل شرح الحقيقة للذات الإلهية وحقيقة الكمال المطلق و بيان صفاته.

٥ ـ الصور الاستعارية في خطبة ٦٥

يتحدث الإمام علي عليه السلام في هذه الخطبة عن صفات البارئ عزّ وجلّ، فهو الأمل الذي لم يسبق و هو الظاهر غير الخفي و الباطن في جميع الكائنات.

((الْحمْدُ للهِ الّذي لمْ تسْبِقْ لهُ حالٌ حالاً، فيكُون أوّلاً قبْل أنْ يكُون آخِراً، ويكُون ظاهِراً قبْل أنْ يكُون باطِناً. كُلُّ مُسمّىً بِالْوحْدة غيْرهُ قلِيلٌ، وكُلُّ عزِيزٍ غيْرهُ ذلِيلٌ، وكُلُّ قوِي غيْرهُ ضعِيفٌ، وكُلُّ مالِكٍ غيْرهُ مملُوكٌ، وكُلُّ عالِمٍ غيْرهُ متعلِّمٌ، وكُلُّ قادِرٍ غيْرهُ يقْدرُ ويعْجزُ، وكُلُّ سمِيعٍ غيْرهُ يصمُّ عنْ لطِيفِ الأصْواتِ، ويُصِمُّهُ كبِيرُها، ويذْهبُ عنْهُ ما بعُد مِنْها)). (نهج البلاغة؛ خطبه ٦٥: ٥٠)

في عبارة ((لمْ تسْبِقْ لهُ حالٌ)) توجد استعارة تبعية لأن الإمام استخدم فعل تسبق بدلا من تقدمت. لقد استعار الإمام العبارات و المضامين القرآنية لبيان صفات البارئ عز و جل منها الظاهر والباطن والأول والآخر من قوله تبرك وتعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد، ٣).

((لمْ يخْلُقْ ما خلقهُ لتشْدِيدِ سُلْطانٍ، ولا تخوُّفِ منْ عواقِبِ زمانٍ، ولا اسْتِعانةٍ على نِدّ مُثاوِرٍ ولا شرِيكٍ مُكاثِرٍ ولا ضِدٍّ مُنافِرٍ ولكِنْ خلائِقُ مرْبُوبُون وعِبادٌ داخِرُون)). (نهج البلاغة؛ خطبه ٦٥: ٥٠)

استعار الإمام صيغة داخرون للعباد المناقدون للطاعة بدل صاغرون و هي أقرب للمعني في ذلك و قد أخذ الإمام هذا الوصف من القرآن الكريم حيث قال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (النحل، ٤٨).

و معنى ((وَ هُمْ داخِرُونَ)) أي صاغرون، يقال: دخر يدخر دخورا، أي صغر يصغر صغارا، و هو الذي يفعل ما تأمره شاء أم أبي، و ذلك لأن هذه الأشياء منقادة لقدرة اللّه تعالى و تدبيره و قوله: وَ هُمْ داخِرُونَ حال أيضا من الظلال. فإن قيل: الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو و النون؟ قلنا: لأنه تعالى لما وصفهم بالطاعة و الدخور أشبهوا العقلاء (الفخر الرازي، ج٢٠، ص: ٢١٦).

والمنصوب للعبرة في هذه الآية هو كل شخص و جرم له ظل كالجبال و الشجر وغير ذلك، والذي يترتب فيه أيمان و شمائل إنما هو البشر فقط، لكن ذكر الأيمان و الشمائل هنا على جهة الاستعارة لغير البشر، أي تقدره ذا يمين و شمال، و تقدره يستقبل أي جهة شئت. (ابن عطية، ١٤٢٢، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٣، ص: ٣٩٨).

((لمْ يؤُدْهُ خلْقُ ما ابْتدأ، ولا تدْبِيرُ ما ذرأ ولا وقف بِهِ عجْزٌ عمّا خلق، ولا ولجتْ عليْهِ شُبْهةٌ فِيما قضى وقدّر)). (نهج البلاغة؛ خطبه ٦٥: ٥١)

في عبارة ((لمْ يؤُدْهُ)) توجد استعارة مكنية تخييلية وفي عبارة ((ولا وقف بِهِ عجْزٌ)) يوجد مجاز عقلي حيث أن الفاعل غير حقيقي.

لقد استقي الإمام عليه السلام هذه العبارات من القرآن الكريم حيث وردة في آية الكرسي وهي تبين لنا أن مسك السموات و الأرض لم يتعب البارئ عزّ و جلّ و لا يؤده حفظهما:

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة، ٢٥٥).

وَ لا يَـؤُدُهُ أي و لا يثقله، مأخوذ من الأود و هو الاعوجاج. حِفْظُهُما أي حفظه السموات و الأرض، فحذف الفاعل و أضاف المصدر إلى المفعول (بيضاوي، ١٤١٨، ج١، ص: ١٥٤).

٣ ـ ٤ ـ استعاره در خطبه ٨٥

((وأشْهدُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ وحْدهُ لا شريك لهُ: الأوّلُ لا شيْء قبْلهُ، والآخرُ لا غاية لهُ، لا تقعُ الأوْهامُ لهُ على صفة، ولا تُعْقدُ الْقُلُوبُ منْهُ على كيْفيّة، ولا تنالُهُ التّجْزِئةُ والتّبْعِيضُ، ولا تُحِيطُ بِهِ الأبْصارُ والْقُلُوب)) (نهج البلاغة؛ خطبه ٨٥: ٦٦)

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد، ٣)

﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الانعام، ١٠).

((فمنْ فرّغ قلْبهُ، وأعْمل فكْرهُ، ليعْلم كيْف أقمْت عرْشك، وكيْف ذرأْت خلْقك، وكيْف علّقْت في الْهواء سماواتك، وكيْف مددْت على موْر الْماء أرْضك، رجع طرْفُهُ حسيراً وعقْلُهُ مبْهُوراً وسمْعُهُ والهاً وفكْرُهُ حائراً)). (نهج البلاغة؛ خطبه ١٦٠: ١٦٠)

توجد استعارة مكنية في عبارة ((رجع طرْفُهُ حسيراً)) لقد شبه الإمام الطرف وهي العين بالشخص البهوت والمتحير ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك، ٤)

والخاسئ: الخائب، أي الذي لم يجد ما يطلبه، و تقدم عند قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَؤُا فِيهَا﴾ في (سورة المؤمنين: ١٠٨).

و الحسير: الكليل. و هو كلل ناشيء عن قوة التأمل و التحديق مع التكرير، أي يرجع البصر غير واجد ما أغري بالحرص على رؤيته بعد أن أدام التأمل و الفحص حتى عيي و كلّ، أي لا تجد بعد اللّأي فطورا في خلق اللّه (ابن عاشور، ج٢٩، ص: ١٩).

((يعْلمُ مساقِط الأوْراقِ، وخفِيّ طرْفِ الأحْداقِ.)) (نهج البلاغة؛ خطبه١٧٨: ١٨٦)

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر، ١٩)

الاستعارة: في قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾.

أي النظرة الخائنة، كالنظرة إلى غير المحرم واستراق النظر إليه وغير ذلك، وجعل النظرة خائنة إسناد مجازي، أو استعارة مصرحة أو مكنية و تخييلية بجعل النظر بمنزلة شيء يسرق من المنظور إليه (صافي، ١٤١٨، ٢٤: ٢٣٥).

الاستعار في بيان خلق السموات و الأرض

يشير الإمام عليه السلام في الخطبة التالية إلى بدايات خلق السموات و الأرض و هي من آيات الله الباهرة حيث خلقت و جعلت دون عمد يري و هذا من عجيب صنعه. فنجد الإمام عليه السلام يستخدم العبارات و المضامين القرآنية في سياق استعاري فيقول:

((فمنْ شواهد خلْقه خلْقُ السّماوات مُوطّداتٍ بلا عمدٍ، قائماتٍ بلا سندٍ)) (نهج البلاغة؛ خطبه ١٨٢: ١٩٠)

فيوظف الإمام عليه السلام مفردتي العمد و السند بدل الدعائم على سبيل الاستعارة التبعية و قد استقي هذا المضمون من الآية القرآنية حيث تقول:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد، ٢)

ثم ينوه الإمام عليه السلام إلى الخطاب الرباني للسموات والأرض وأنه دعاهن فأجبن طائعات:

((دعاهُنّ فأجبْن طائعاتٍ مُذْعناتٍ، غيْر مُتلكّئاتٍ ولا مُبْطئاتٍ)) (نهج البلاغة؛ خطبه ١٨٢: ١٩٠)

توجد استعارة مكنية تحقيقة و وفاقية في عبارة ((فأجبْن طائعات...)) حيث شبه السموات و الأرض وقت الخطاب الرباني بإنسان مطيع ومنقاد وأشار إلى احدى لوازمه وهي التسليم و الانصياع التام و د تكون استعارة تمثيلية تخييلية. قال ابن عباس أتت السماء بما فيها من الشمس والقمر والنجوم وأتت الأرض بما فيها من الأنهار والأشجار والثمار وليس هناك أمر بالقول على الحقيقة و لا جواب لذلك القول بل أخبر الله سبحانه عن اختراعه السماوات و الأرض و إنشائه لهما من غير تعذر و لا كلفة و لا مشقة بمنزلة ما يقال للمأمور افعل فيفعل من غير تلبث و لا توقف فعبر عن ذلك بالأمر و الطاعة (طبرسي، ١٣٧٢، ج٩، ص: ٨)

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت، ١١)

وفي قوله استوى الى السماء استعارة مكنية فالمستعار الاستواء والمستعار منه كل جسم مستو والمستعار له هو الحق عز و جل و قد تقدم تفصيل هذه الاستعارة كثيرا فتدبره.

وفي قوله ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فنون شتى نجملها بما يلي:

أ- إسناد القول للأرض و السماء و توجيه الخطاب لهما من باب المجاز العقلي والقصد من هذا المجاز تصوير قدرته سبحانه و استحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات للطوع والكره لهما، و يجوز أن يكون هذا من باب الاستعارة المكنية فقد شبههما بكائنين حين عاقلين ثم حذف المشبه به و أثبت شيئا من لوازمه لتمثيلهما بأمر المطاع وإجابة

الطائع كما تقول نطقت الحال بكذا بدل دلت فيجعل الحال كالانسان الذي يتكلم في الدلالة و البرهان ثم يتخيل له النطق الذي هو من لازم المشبه به وينسب اليه (درويش، ١٤١٥، ج٨، ص: ٥٣٨).

((ولوْ لا إقْرارُهُنّ لهُ بالرُّبُوبيّة وإذْعانُهُنّ بالطّواعية، لما جعلهُنّ موْضعاً لعرْشه، ولا مسْكناً لملائكته، ولا مصْعداً للْكلم الطّيّب والْعمل الصّالح منْ خلْقه)) (نهج البلاغة؛ خطبه ١٨٢: ١٩٠)

في عبارة إقْرارُهُنّ و إذْعانُهُنّ)) توجد استعارة مكنية حيث شبهه هذه الكائنات الجامدة بإنسان مطيع و منقاد شأنه التسليم و الطاعة

وفي الخطبة التالية ينوه الإمام إلى مهمة الرسول الأكرم ﷺ في تبليغ الرسالة السماوية قائلاً:

((فصَدَعَ بِالْحَقّ وَ نَصَحَ لِلْخَلْقِ وَ هَدَى إِلَى اَلرُّشْدِ وَ أَمَرَ بِالْقَصْدِ صَلّى اَللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِه وَ سَلّمَ)) (نهج البلاغة؛ خطبه ١٩٥: ٢٢٩).

توج استعارة مكنية في عبارة ((فصدع بالحق)) فالمستارمنه هي الزجاجة و المستعار لفظة صدع و المستعار له هو يبليغ الرسالة و هي استعارة المحسوس بالمعقول

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (حجر، ٩٤)

في قوله ((فاصدع بما تؤمر)) استعارة مكنية فالمستعار منه الزجاجة و المستعار الصدع وهو الشق والمستعار له هو عقوق المكلفين و هو من استعارة المحسوس للمعقول والمعنى صرح بجميع ما أوحي إليك و بين كل ما أمرت ببيانه و إن شق ذلك على بعض القلوب فانصدعت و المشابهة بينهما فيما يؤثره التصديع في القلوب فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من التقبض و الانبساط و يلوح عليها من علامات الإنكار و الاستبشار كما يظهر ذلك على ظاهر الزجاجة المصدوعة فانظر الى هذه الاستعارة ما أروعها و ما أبعد دلائلها و مراميها و ما أوجزها لأنها وقعت في ثلاث كلمات انطوت على ما يستوعب الصفحات (درويش، ١٤١٥، ج٥، ص: ٢٦٤).

((وفَتَقَ بَعْدَ الِارْتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا)) (نهج البلاغة، ١٣٧١، خ٩١، ٧٧).

الاستعارة التبعية التصريحية في عبارة فتق بدل فتح و القرينة لفظة أبواب و و الابواب تفتح عادة لا تفتق.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الانبياء، ٣٠)

((وَأَقَامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا)) (نهج البلاغة، ١٣٧١، خ٩١، ٧٧).

استعاره تبعيه في استخدام فعل أقام بدل جعل.

((وَأَقَامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا)) (نهج البلاغة، ١٣٧١، خ٩١، ٧٧).

الشهب ج شهاب. يصف الإمام عليه السلام حالة رصد الشهب للشياطين مستعيرا ذلك من الوصف القرآني حيث يقول جل علاه:

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات، ١٠)

((شهاب)) لهب من النار، و يطلق أيضا على الأنوار النّارية الممتدة في السماء، و هي قطع حجرية صغيرة متحركة في الفضاء الخارجي للكرة الأرضية، كما يقول علماء الفلك، وتتأثر بجاذبية الأرض عند وصولها إلى مقربة منها فتسقط على شكل شعلة نارية حارقة، لأنّها عند ما تصل إلى طبقات الهواء (مكارم الشيرازي، ١٤٢١، ج١٩، ص: ٨٥).

وقوله تبارك وتعالى عن لسان الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ (جن، ٩)

ويستمع فعل الشرط و الآن ظرف حالي مستعار للاستقبال و هو متعلق بيستمع (درويش، ١٤١٥، ج١٠، ص: ٢٣٨) و رصداً أي شهابا راصدا له و لأجله يمنعه عن الاستماع بالرجم، أو ذوي شهاب راصدين على أنه اسم جمع للراصد (بيضاوي، ١٤١٨، ج٥، ص: ٢٥٢)

((وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تُمُورَ فِي خَرْقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ)) (نهج البلاغة، خ ٩١)

استعاره تبعيه في ((بأيده)) بدل قدرته. وقد تكون مجازاً مرسلاً وفي إسناد فعل تمور إلى

السماء يوجد مجازا عقلياً

لقد استساغ الإمام عليه السلام وصف السماء حال مسكها بيد الخالق و التفادي عن المور بالآيات القرآنية التالية و فيها تاركيب استعارية: فتوجد استعاره تبعية تصريحية في عبارة تقف بدل تمتثل و في كلمة مستسلمة توجد استعارة مكنية تحقيقية و وفاقية. لقد سبه الإمام عليه السلام السماء و هي مخلوقة بشخص فط حالة التسليم و ذكر أحد لوازمه و هو الانقياد و الطاعة و الانصياع التام. و فيه ترسيح من أجل ما يلائم المستعار منه و تناسي التشبيه.

من جانب آخر نجد التأثير الفظي و المعنايي من القرآن الكريم حيث استعار الإمام عليه السلام المفردات و المضامين القرآنية في شأن خلق السموات و حالاتها من الآيات التالية: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (الطور، ٩)، أو قوله تعالى ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (ملك، ١٦).

وقوله ((مستسلمة)) مأخوذ من السياق القرآني التالي: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت، ١١)

فمعنى أمر السماء والأرض بالإتيان و امتثالهما: أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الآمر المطاع، و هو من المجاز الذي يسمى التمثيل، و يجوز أن يكون تخييلا و يبنى الأمر فيه على أن اللّه تعالى كلّم السماء و الأرض و قال لهما: ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه، فقالتا: أتينا على الطوع لا على الكره. و الغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير، من غير أن يحقق شيء من الخطاب و الجواب. و نحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ قال الوتد: اسأل من يدقني، فلم يتركني، ورائي الحجر الذي ورائي (صافي، ١٤١٨، ج٢٤، ص: ٢٩٢)

و الإتيان في قوله: ائْتِيا أصله: المجيء والإقبال ولما كان معناه الحقيقي غير مراد لأن السماء و الأرض لا يتصور أن يأتيا، و لا يتصور منهما طواعية أو كراهية إذ ليستا من أهل العقول و الإدراكات، و لا يتصور أن اللّه يكرههما على ذلك لأنه يقتضي خروجهما عن قدرته بادئ ذي بدء تعين الصرف عن المعنى الحقيقي و ذلك بأحد وجهين لهما من البلاغة المكانة العليا:

الوجه الأول: أن يكون الإتيان مستعارا لقبول التكوين كما استعير للعصيان الإدبار، وكما يستعار النفور والفرار للعصيان. فمعنى ائتِيا امتثلا أمر التكوين. وهذا الامتثال مستعار للقبول وهو من بناء المجاز على المجاز وله مكانة في البلاغة، والقول على هذا الوجه مستعار لتعلق القدرة بالمقدور (ابن عاشور، ج٢٥، ص: ٢١).

نتائج البحث:

بعد التحري و التحقيق في كتاب نهج البلاغة و القرآن الكريم حول تطبيق الاستعارة في خطب ورسائل الإمام علي عليه السلام مع الاستعارات الواردة في القرآن وصلنا إلى النتائج التالية:

من خلال البحث في خطب الإمام عليه السلام و خاصة الخطب التوحيدية وجدنا اشتراك وتقارب في اللفظ و المضمون استقاها الإمام عليه السلام من القرآن الكريم و جعلها في السياق والتركيب الاستعاري لبيان صفات البارئ جلّ علاه.

إنّ براعة الاستعارة في نهج البلاغة و جمالية جوانبها الفنّية وعمق تأثيرها في نفس المتلقّي وذهنه تشتمل بأكملها على صور استعارية و من خلال تطبيقها مع الاستعارات القرآنية وجونا التشابه و الترابط بينها واضحاً و بيناً.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتدىء به القرآن الكريم

- نهج البلاغة
- ابن عاشور، محمد بن طاهر، التحرير و التنوير، بيروت: مؤسسه التاريخ، د ت.
- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ١٤٢٢ق.
- ابن منظور الافريقي، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، لا مكان، دار صادر، ١٤٠٤ق.
- ابن ميثم، ميثم بن علي، شرح نهج البلاغة، ١٣٧٥ش.
- أبو الفتوح رازى، حسين بن على روض الجنان و روح الجنان فى تفسير القرآن، مشهد: بنياد پژوهش‌هاي، اسلامى آستان قدس رضوى.١٤٠٨ق.

- أبو موسي، محمد حسين،
- بيضاوي، أنوار التنزيل و أسرار التأويل، ١٤١٨ق.
- البيومي، يوسف، علم البيان، جامعة الأزهر، مطبعة عابدين بالقاهرة، ١٩٧٢م.
- التفتازاني، سعد الدين، شرح المختصر، طهران، منشورات اسماعيليان، مطبعة سرور، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ق.
- الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، ت: د. عبدالمنعم خفاجي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣ق.
- درويش، تفسير القرآن و إعرابه، ١٤١٥ق.
- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد، مفتاح العلوم، بيروت، المكتبة العلمية الجديدة، د.ت
- صافى، محمود بن عبدالرحيم، ا لجدول في إعراب القرآن، دمشق: بيروت: دار الرشيد مؤسسة الإيمان، ١٤١٨ق.
- طبرسى، فضل بن حسن تفسير، مجمع البيان فى تفسير القرآن، تهران: انتشارات فراهانى. ١٣٧٣ش.
- فخر رازى، محمد بن عمر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٣٩ق.
- النيسابوري، ١٤١٦، تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان،
- مكارم شيرازى، ناصر، التفسير الأمثل، تهران: دار الكتب الإسلامية. ١٤٢١ق.
- الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبديع والبيان، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ق.